الجامعة المستنصرية
كلية الاداب

بناء اشعار المديح النبوي
في ديوان حسان بن ثابت

د. ليلى محمد ناظم الحيالي

رجب ١٤٢٩هـ
تموز ٢٠٠٨مـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

دأب العرب منذ القدم على تمجيد الاعمال الصالحة والصفات الحميدة لدى الاشخاص والقبائل ، وامتدحوا شيوخهم وذكروا رجالهم و نساءهم بالصفات التي تستدعي المديح او الشكر والثناء ، وقد يلجأ بعضهم الى التكسب بالشعر وهذه الصفة تخصص بها بعض الشعراء واصبحت مهنة يمتهنها الشاعر للحصول على المال او التقرب الى الملوك والقادة اوبذكر المناقب الحميدة لديهم .

الا اننا نرى بعض الشعراء الاسلاميين ومنهم حسان بن ثابت كان ينشد اشعاراً حية في مدح الاسلام او مدح الرسول (عليه الصلاة والسلام) او مدح المسلمين او القادة بحب صادق وقلب خاشع ، اذ لو لم يكن حسان خاشعا وبالله مؤمناً ، لما كان مجبرا على اختيار هذا المسلك في شعره ، واتخاذ اسلوب المديح النبوي تقربا الى الله تعالى وحب رسوله الكريم (عليه الصلاة والسلام) .

وقد وجدت أن مدائح حسان ليست من المديح المألوف عند غيره من الشعراء ، فهي مدائح نبوية جاءت في اثناء اشعار الفخر والرثاء والحماسة وفي اشعار الجهاد في غزوات المسلمين في بدر واحد وفي المناسبات الاخرى وفي كثير من اشعاره التي تميزت بالوحدة العضوية للقصيدة التي كانت مطالعها طللية ومقدماتها في الغزل الرمزي او التقليدي ، فنجد احيانا بيتا واحدا في القصيدة يعبر عن عمق اعجاب الشاعر بالرسول (عليه الصلاة والسلام) من خلال قصيدة الفخر او الرثاء او الهجاء او غير ذلك ، ويدل ذلك البيت على الغرض الاساس من القصيدة .

اعتمدت في كتابة البحث على ديوان حسان طبعة دار صادر الذي كان منظما ومرتبا بحسب قوافي القصائد وطبعة الديوان بتحقيق وليد عرفات التي وجدت فيها بعض الملاحظات التي تقتضي اعادة النظر في دراسة هذه الطبعة ، فضلا عن المصادر الاساسية المهمة .

كان البحث متضمناً بناء قصائد المديح النبوي في ديوان حسان ، اذ انه اعتمد الحوار والاسلوب القصصي التاريخي والخطاب والمناجاة والضراعة الى الله تعالى ، واستعمل الشاعر ايضا الاساليب الخبرية والانشائية في انشاده المدائح النبوية فأستعمل النهي والنفي والشرط والاستفهام الانكاري والتمني والترجي وغير ذلك من الاساليب البلاغية .

ومن الله التوفيق وعليه التوكل في الدنيا
والاخرة

بناء اشعار المديح النبوي في ديوان حسان

برع حسان بن ثابت في مديحه براعة فائقة قبل الاسلام وبعد ان دخل الاسلام ، بلغ فيه شأوا بعيدا في حسن الديباجة وصياغة الابيات ، وهو في المديح لايقل براعة عن الاغراض الشعرية الاخرى .

فقد كانت لحسان مدائح قبل الاسلام تتمثل بمدح ملوك الغساسنة ومجالس الشراب وليالي السمر في بلاد الشام و وصف تلك المجالس في قصائد مطولة .

اما في الاسلام فقد اختلفت مدائحه بعد ان اصبح احد الصحابة وشاعر الرسول عليه اصلاة والسلام وتخصص في مابعد بشعره الجديد الذي يتسم بالسمات الاسلامية الجديدة لفظا ومعنى وصور مستمدة من القران الكريم والحياة الجهادية التي يعيشها المسلمون والدعوة الى نصرت الاسلام والمسلمين واتباع السنن الجديدة التي امر بها الله تعالى .

وقد درست اشعار المديح النبوي في ديوان حسان بما فيها القصيدة او المقطوعة او النتفة وكانت مدائحه كلها تأتي في اثناء اشعاره واغراضه المختلفة .

ولم يختلف حسان في مديحه النبوي عن صاحبيه شاعري الرسول عليه الصلاة والسلام وهما عبد الله بن رواحة و كعب بن مالك .

وقد مثلت مدائح حسان تجربة ذاتية جديدة سبق فيها حسان غيره من الشعراء.

اما مظاهر التجديد في مدائح حسان فهي تتمثل بالفاظه الاسلامية ومعانيه القرانية الجديدة .

فقد اتخذ الحوار اسلوبا تمهيديا للبدء بالمديح وذكر الفضائل العربية ، مثل السماحة والكرم والحلم والمروءة والعفة والاباء والشمم والعدل والقوة والشجاعة ، فضلا عن القيم الاسلامية الاخرى والمثل العليا والورع والتقى والتواضع والوقار وخفض الجناح . ففي دعائه ومناجاته كأنه يحاور رب العالمين فيقول : (١)

وانت اله الخلق ربي وخالقي   بذلك ما عمرت في الناس اشهد

ويقول : (٢)

تعاليت رب الناس عن قول من دعا   سواك الهاً انت اعلى وامجد
لك الحق والنعماء والامر كله   فاياك نستهدي واياك نعبد

فكان اسلوب الدعاء والمناجاة اقرب الى الحوار والتضرع الى الله بأسلوب الخطاب (تعاليت ، لك الحق ، انت الإله ....) ، وهو اسلوب نابع من اعماق النفس ليس فيه رياء او تزلف لمخلوق ، وهو يصور الحالات الانسانية بضعفها وقوتها ، فهي ضعيفة امام خالقها ، قوية امام دنياها الزائلة .

والشاعر في هذه الابيات يلتزم البحر الطويل اذ انه يستوعب المعاني الغزيرة والعاطفة الهادئة ، ويعبر عن صور الخشوع والايمان الصادق .

واتساع التفعيلات في هذا البحر يجعله وافيا شافيا للمعنى الذي يروم التعبير عنه ، وهذا الاحساس بالضراعة الى الله تعالى يدعو المتلقين الى حمل آمالهم في رضا الله ، فيتجهون الى الخالق . والتجريد والتشخيص يتجلى في كثير من ابيات هذه القصيدة حين يوجه الخطاب مباشرة الى الله تعالى .

وفي قصيدة اخرى يتجه فيها الشاعر الى اسلوب المحاورة القصصية حين يوجه كلامه للمشركين فيقول : (٣)

وقد زعمتم بأن تحموا ذماركم   وماء بدر زعمتم غير مورود
وقد وردنا ولم نسمع لقولكم   حتى شربنا رواءً غير تصريد
مستعصمين بحبل غير منجذم   مستحكم من حبال الله ممدود

يحاور الشاعر المشركين مبينا خذلانهم حين عتوا عتوا كبيرا ، وقد ورد المسلمون ماء بدر ورويت ابلهم ونوقهم وابناؤهم بشجاعة المؤمن وبسالة المجاهد .

أما اسلوبه القصصي التاريخي فيوظفه لمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويبين مواقفه الشجاعة في نشر الدين القويم ،حين سمع هاتفا يقول : (٤)

---

(١) ديوانه ٤٧ ، طبعة دار صادر و ١/ ٣٠٦ ، طبعة وليد عرفات .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) ديوانه ٤٨ ، ١٢٨/١ طبعة دار صادر ، طبعة عرفات .

جزى الله رب الناس خير جزائه   رفيقين قـــالا خيمتي أم معبد
همـــا نزلا بالهدى واهتدت بـــه   فقد فاز من امسى رفيق محمد
فيـــا لقصيٍّ مـــا زوى الله عنكم   به من فخار لا يبارى وسؤدد
ليهن بني كعب مقـــام فتـــاتهم   ومقعـــــدها للمؤمنين بمرصد

ففي الاسـلوب القصصي التاريخي يبين لنـــا حسان المواقف المطهرة التي مر بها النبي (صلى الله عليه وسلم) في هجرته المباركة ، ثم يبين الحدث التاريخي في خيمتي ام معبد من بني كعب التي ضيفت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصـاحبه ابا بكر (رضي الله عنه) ولم تكن تعلم انه النبي . ويجسد حسان مديحه فيشخص النسب الزكي (قصي) الذي يعد رمزاً للفخر والسؤدد ، وهو يعود في ذلك النسب الى النبي اسماعيل بن ابراهيم الخليل (عليهما السلام) . فالاسلوب القصصي يبين فيه الشاعر تلك الهجرة والاشخاص الذين شاركوا فيها ضد قوى الضلالة والجبروت من مشركي قريش ، ورفضهم طريق الهداية ، فهم سفهاء عمي وبكم لايعقلون ، ثم نزلت تلك الركاب على اهل يثرب وهي تحمل لهم طريق السعادة الابدية .

والشاعر حين استعمل (قد) في قوله (فقد فاز) انما يريد تحقيق الماضي وتوكيده وتقريبه من الحاضر . (٥)

وفي قصيدة اخرى يوظف الاسلوب القصصي التاريخي ليسجل فيه تاريخ يوم بدر الكبرى ، ويوم فتح مكة ، فيقول : (٦)

وآت الرسول فقل ياخير مؤتمن   للمؤمنين اذا ما عـــــدل البشـــر
علام تـــدعى سليم وهي نازحـــة   امـــــام قوم هم اووا وهم نصروا
ســــــماهم الله انصارا لنصرهم   دين الهدى وعوان الحرب تستعر

ثم قال : (٧)

والناس ألبٌ علينا ثم ليس لنـــا   الا السيوف واطراف القنا وزر
ولا يهر جناب الحرب مجلسنا   ونحن حين تلظى نـــارها سعر
وكم رددنا ببـــدر دون ما طلبوا   اهــــل النفاق وفينا أنزل الظفر
ونحن جندك يوم النعف من احد   اذ خربت بطرا اشياعها مضـــر(٨)

---

(٤) ديوانه ٥٢ ، اما في طبعة عرفات ١/ ٤٦٥ فلم يرو الا البيت الرابع منها .

(٥) ينظر الاتقان في علوم القرآن ٤٠٢ .

(٦) ديوانه ١١٢ و ١/ ٢٦٥ ، طبعة عرفات .

(٧) ديوانه طبعة دار صادر ١١٣ و ١/ ٢٦٥ ، طبعة وليد عرفات .

(٨) النعف : المعارضة .

فالشاعر يتسلسل بذكر الاحداث التاريخية متدرجا من معركة بدر ثم احد ثم يوم الفتح مبتدئاً بفعل الطلب (آت الرسول) ، والاستفهام (علام تـدعى سليم) اي لأي غرض (٩) ، للأستنكار والأستغراب من سوء افعال الاقوام الكافرة ، وبالتالي فان مديح النبي (عليه الصلاة والسلام) واصحابه (رضي الله عنهم) ، بوصفهم رجال عدل ناصروه في محنته

وهو ينشر بينهم المحبة والسلام ووحدة الكلمة ، كان ضرورة لابد منها لبيان موقف الشاعر وحبه للنبي واصحابه ، ثم انه يصف السيوف وقعقعتها والرماح وطعنها ويصور المواجهة والاشتباك بين الطرفين والظفر الأكيد للمؤمنين .

وفي قصيدة اخرى يتخذ من الاسلوب القصصي مادة لوصف وقائع معركة بدر الكبرى ، ويبتدئ القصيدة (بالعرض والتحضيض) فيقول : (١٠)

ألا يالقوم هل لما حم دافع   وهل ما مضى من صالح العيش راجع

فيبدأ بالمطلع التقليدي بتذكر الماضي والحياة الرغيدة التي ذهبت ولن ترجع ، اذ ان الشاعر قضى ستين عاما قبل الاسلام وعاش عيشة الملوك بترفها ونعيمها مع الغساسنة الذين تربطه معهم رابطة القرابة وصلات المودة والحب ، واصبح يتحسر لفقدهم بعد ان انقضى العمر ومضى الدهر ، ودخل الاسلام واصبح هدفه الدفاع عنه ، فوصف المقاتلين في ارض المعركة تعلوهم السيوف ويخالط بريقها الغبار ويلون صورها النصر والقهر ، وهو مؤمن بقضاء الله تعالى وقدره ، اذ ان لكل اجل كتاب ، ويختم قصيدته بالحكمة والايمان بوحدانية الله تعالى .

قال : (١١)

وفوا يوم بدر للرسول وفوقهم   ظلال المنايا والسيوف اللوامع
دعا فأجابوه بحق وكلهم   مطيع له في كل امر وسامع

وقال في البيت الاخير : (١٢)

ونعلم ان الملك لله وحده   وان قضاء الله لابد واقع

وفي قصيدة اخرى يتخذ من الوصف اسلوبا للتعبير عن حبه للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ورسم مواقفه الجريئة في مواجهة المشركين واليهود في المدينة المنورة ، فيبدأ اولا بالنسيب فيذكر (ام الوليد) وربوعها التي اصبحت بلاقع ، والرياح تعصف بها ، والسحب تسقي ترابها ، والاثافي ملونة بالسواد والغبار فهي مثل الحمام الذي يتغنى كل صباح بالذكريات ويتساقط فوق تلك الرمال التي تكتسحها الرياح العاتية ، فالذكريات والحنين ، كل أولئك يمهد فيه للبدء بمدح الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ووصف معركة احد ، قال : (١٣)

أشاقك من ام الوليد ربوع   بلاقع ما من اهلهن جميع
عفاهن صيفي الرياح وواكف   من الدلو رجاف السحاب هموع

---

(٩) ينظر الاتقان في علوم القرآن ٣٩٦ .

(١٠) ديوانه ١٤٧ و ١/ ٢٦٧ ، طبعة عرفات .

(١١) المصدر نفسه .

(١٢) المصدر نفسه مع بعض الاختلاف في تسلسل الابيات .

ثم يبدأ بقوله : (١٤)

فدع ذكر دار بددت بين اهلها   نوىً فرقت بين الجميع قطوع
وقـــل ان يكن يوم بأحد يعده   سفيـــةٌ فأن الحق ســوف يشيع

فالشاعر ينشد القصيدة في حضرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وينصر دعوته ويشيد ببطولته وشجاعة اصحابه (رضي الله عنهم) ، ويشير الى موقف الانصار وبطولاتهم في قوله : (١٥)

وحامى بنو النجار فيه وضاربوا   وما كان منهم في اللقاء جزوع

ويصف حسان في هذه القصيدة الشهداء وبريق السيوف يخطف الابصار ، وحبات الرمل تطرز رؤوس المقاتلين وكف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تباركهم وتلتف حولهم وهو يحميهم بقلبه ولسانه ونوره وبركته ، ويذكرهم بجنان الخلد والدار التي فيها نعيم مقيم ، ويصور قتلى المشركين ونار جهنم الموقدة تنتظرهم والحميم والغساق يسقيهم وضريع جهنم يحشو اجوافهم ، وشجرة الزقوم طعامهم .

وقد تبدأ قصيدة المديح بالنداء والخطاب حين يخاطب حسان الحارث بن سويد بن الصامت الانصاري الذي اخذ بثأره من قاتل ابيه الذي قتل قبل الاسلام في يوم بعاث ، فالحارث قتل قاتل ابيه في يوم احد وكان مسلماً ، فأمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بقتله ، لأن عمله لم يكن صالحا ، فالأنتقام ليس من شيمة المسلمين ، فمدح حسان رسول الله الذي يدعو الى المسامحة بين المسلمين ، والصفح عن المسيء . قال : (١٦)

يا حار في سنة من نوم او لكم   أم كنت ويحك مغترا بجبريل
وقلتـــم لن نرى والله مبصركم   وفيكم محكم الايـــات والقيـل
محمد والعزيــــــز الله يخبـره   بمـــا تكن سريرات الاقاويل

وفي قصيدة اخرى يوظف حسان الرموز الدينية المقدسة لتصوير كرم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومنزلته المقدسة ورسالته المباركة ، فيذكر اسم النبي (يحيى وابا يحيى) ويذكر الاحقاف وما جرى فيها من رسالات سماوية سبقت نبينا الاكرم . ويصور من خلال ذلك

---

(١٣) ديوانه ١٥٠ ، طبعة عرفات ١/ ٣٣٧ .
(١٤) المصدر نفسه .
(١٥) المصدر نفسه .
(١٦) ديوانه ١٨٥ و ١/ ١٩٠ ، طبعة عرفات .

سعة صدر النبي وسماحة الاسلام والايمان بالانبياء جميعهم ، ادم ونوح وموسى وعيسى وصالح . فيقول : (١٧)

شهدت بأذن الله أن محمدا   رسول الذي فوق السماوات من عل (١٨)
وأن ابا يحيى ويحيى كليهما   له عمل في دينه متقبل (١٩)
وان التي بالجزع من بطن نخلة   ومن دانها فله من الخير معزل (٢٠)
وأن الذي عادى اليهود ابن مريم   رسول الله أتى من عند ذي العرش مرسل
وأن أخا الاحقاف اذ يعد لونه   يقوم بدين الله فيهم فيعدل

ولقد مدح حسان النبي (صلى الله عليه واله وسلم) وابا بكر وعمر في قوله : (٢١)

ثلاثة يزروا بسبقهم   نضرهم ربهم اذا نشروا
عاشوا بلا فرقة حياتهم   واجتمعوا في الممات اذ قبروا
فليس من مسلم له بصر   ينكر من فضلهم اذا ذكروا

ففي هذه المقطوعة التي مدح فيها حسان الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وصاحبيه ، يروي حقائق تاريخية بأسلوب خبري متسلسل ، فيستعمل اسلوب التقسيم ويفصل الكلام فيبتدئ بذكر الثلاثة ، ثم يفصل الحديث عنهم بأنهم عاشوا في زمن النبوة سوية ، واجتمعوا في المدينة المنورة بعد مماتهم في المسجد النبوي الشريف ، ثم يبين فضلهم ومكانتهم في الاسلام .

وفي قصيدة اخرى يبدؤها بالفخر بقومه ونفسه ، ثم يمدح بها رسول الله والكرم الإلهي الذي تجلى في انتقال الرسول الى المدينة المنورة ونصره على اعدائه ونشر دين الحق بين الناس .

---

(١٧) ديوانه ١٨٦ ، ١/ ٢٠٣ طبعة عرفات .
(١٨) محمد صلى الله عليه واله وسلم ذكر في القرآن الكريم اربع مرات ، وذكر (احمد) مرة واحدة في سورة (ال عمران والاحزاب والفتح وسورة الصف) .
(١٩) ابو يحيى هو زكريا النبي (عليه السلام) وابنه يحيى وهو عند النصارى يوحنا المعمدان .
(٢٠) التي بالجزع موضع اسمه (نخلة) بالحجاز صنم كان يعبد في الجاهلية . فل من الخير : خال من الخير بل كله شر وكفر .
(٢١) ديوانه ١/ ٤٧٤ ، طبعة عرفات .

قال : (٢٢)

وأكرمنا الله الذي ليس غيره   الهٌ بأيام مضت مالها شكل
بنصر الإله للنبي ودينه   وأكرمنا باسم مضى ماله مثل

وقد يكون المديح في اثناء اغراض اخرى مثل اشعار الفخر اوالرثاء او الهجاء او غيرها .

مثل قصيدته التي افتخر فيها بقومه وختمها بأبيات من المدائح النبوية . قال : (٢٣)

نصرنا بها خير البرية كلها   اماما ووقرنا الكتاب المنزلا
نصرنا واوينا وقوم ضربنا   له بالسيوف ميل من كان أميلا

وقوله : (٢٤)

فمن ياتنا او يلقنا عن جناية   يجد عندنا مثوىً كريما وموئلا
نجير فلا يخشى البوادر جارنا   ولاقى الغنى في دورنا فتمولا

بنى حسان مدحه في هذه القصيدة معتمدا (التكرار) في كلمة (نصرنا نبينا) واتخذ الوصف اسلوبا لتصوير الانتصار والسيوف اللامعة والايدي المباركة ، والشرط في قوله (فمن يأتنا) (يجد) واسلوب الخبر في قوله (نجير) .

وفي قصيدة اخرى يعتمد الحوار ، وهو يمدح الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) في اثناء قصيدة الفخر ، فيلجا الى الحوار والحكاية والشرط في قوله : (٢٥)

فلما اتانا رسول المليك بالنور والحق بعد الظلم
ركنا اليه ولم نعصه   غداة اتانا من ارض الحرم
وقلنا صدقت رسول المليك   هلم الينا وفينا أقم
فنشهد انك عند المليك ارسلت حقا بدين قيم
فناد بما كنت اخفيته   نداءً جهاراً ولا تكتتم
فأنا واولادنا جنة   نقيك وفي مالنا فاحتكم

ففي ابيات القصيدة نجد في قوله (قلنا ، صدقت ، هلم ، فنشهد ، فناد نداء ، فانا ....) يتواصل الحوار وكأنه يسرد قصة متسلسلة الاجزاء منذ بدء الرسالة وانتشارها والنصر المبين الذي اولاه الله تعالى رسوله ، بالفاظ يسيرة وسلسة واسلوب سهل ممتنع ، ويمكن ان نعد قصيدة الفخر قصيدة مديح ، والفخر هو تمهيد وتقديم لغرض الوصول الى النهاية المدحية .

---

(٢٢) ديوانه ١٩١ و ١/ ٣١٧ ، طبعة عرفات .

(٢٣) م.ن ٢٠٦ – ٢١٠ و ١/ ٤٦ ، طبعة عرفات .

(٢٤) م.ن ٢١٠ و ١/ ٤٦ ، طبعة عرفات .

(٢٥) م.ن ٢٢٣ و ١/ ٥٨ ، طبعة عرفات .

وفي قصائد اخرى يمدح حسان رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) ، يبين فيها صفاته الخَلقية والخُلقية ، يبدؤها بوصفه بالنقاء والصفاء والبياض وحسن السيرة وتميزه بخاتم النبوة ، فيقول : (٢٦)

أغـــر عليـــه للنـــبوة خــــــاتمٌ   مـــن الله مشهـــود يلوح ويشـــــهد
وضم الإله اســـم النبي الى اسمه   اذا قـــال في الخمس المؤذن اشـــهد
وشـــــق له مــــن اســمه ليجله   فــــذو العرش محمود وهـــذا محمد
نبي اتانـــــا بعـــد يأس وفـــترة   من الرسل والاوثان في الارض تعبد
فأمسى ســـراجا مستنيرا وهاديا   يلوح كمــــا لاح الصقيـــل المهـــند

والاغر هو السيد الشريف او الكريم الافعال (٢٧) ، او الابيض النقي في مظهره وجوهره ، وقد خصه الله تعالى بخاتم النبوة وهو العلامة الفارقة التي تميزه عن غيره من عامة الناس ، ومن المعروف ان (ام معبد) وصفته بقولها : (٢٨)

" رأيت رجلا ظاهر الوظاءة متبلج الوجه ، حسن الخلق لم تعبه ثلجة ، ولم تزر به صعلة ، وسيم قسيم في عينيه دعج وفي اشفاره وطف وفي صوته صحل أحور أكحل أزعج أقرن ، اذا صمت فعليه الوقار ، واذا تكلم سما وعلاه البهاء وكان منطقه خرزات عقد يتحدرن ، حلو المنطق فصل لانزر ولا هذر ، اجهر الناس واجملهم من بعيد واحلاهم واحسنهم من قريب ، ربعة لاتشنؤه من طول ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين فهو انظر الثلاثة منظرا واحسنهم قدراًله رفقاء يحفون به ، اذا قال استمعوا لقوله وان أمر تبادروا الى امره محفود محشود ، لا عابس ولا مفند " .

وفي رواية ابن الجوزي في كتابه صفة الصفوة (٢٩) ، يذكر لنا ان صوتا عاليا ارتفع في مكة في اثناء مغادرة النبي (صلى الله عليه واله وسلم) خيمتي ام معبد وهو يقول : (٣٠)

جزى الله رب الناس خير جزائه   رفيقـــين قالا خيمتي ام معبد

فأجابه حسان بقوله : (٣١)

لقد خـــاب قوم زال عنـــهم نبيهم   وقدس مـــن يسري اليه ويغتدي
ترحل عـــن قوم فزالت عقولهم   وحل على قـــوم بنــــــور مجدد
وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا   عميٌ وهــــــداة يهتـــدون بمهتد

---

(٢٦) ديوانه ٤٧ ، وديوانه تحقيق وليد عرفات ٣٠٦ مع اختلاف في تسلسل الابيات .
(٢٧) ينظر لسان العرب (غرر) .
(٢٨) صفة الصفوة ١/ ٥٢ .
(٢٩) ينظر صفة الصفوة ١/ ٥٣ (المقصود بالثلاثة النبي (صلى الله عليه واله وسلم) وابو بكر (رضي الله عنه) ودليلهما .
(٣٠) المصدر نفسه ١/ ٥٣ .

نبي يرى مالا يرى الناس حوله   ويتلو كتاب الله في كـــــل مشهد
فان قـــال في يـــوم مقالة غائب   فتصديقها في اليوم اوفي ضحى الغد
ليهن أبـــا بكر ســــعادة جـــده   بصحبته من يســـــعد الله يســـعد

وفي هذه القصيدة يروي لنا حسان قصة رحلة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وهي في خيمتي ام معبد متجها الى يثرب قبل ان يدخلها وينورها بنور الاسلام والنبوة ، فبدأ القصة بالحديث عن الرحلة واسبابها وهي اسباب الهجرة المعروفة ، اذ ترك الرسول قومه الذين حاربوه بأمر من الله تعالى واكد ذلك بقوله ((لقد خاب قوم)) ، فبدأ بالقسم والتوكيد على سوء عاقبة القرشيين الذين حاربوه ، ثم اخبر بقوله (ترحل) فهو يتخذ من الاسلوب الخبري وسيلة لبيان سبب هجرته (رحل) فهو ترك الاشرار واتجه الى الاخيار ، ثم اتخذ من الاستفهام الانكاري اسلوبا للمقارنة بين الضلالة والعمى ، وينهي حسان القصة بالوصول الى المدينة والتهنئة بسلامة الوصول وبرعاية الله وحفظه في قوله : (٣٢)

(ليهن ابا بكر سعادة ....)

وحسان حين يصف الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) يصفه بالبياض والطهر ، وان اســمه الى جانب اسم الخالق في الاذان بأوقاته الخمســة ، وان محمداً (صلى الله عليه واله وسلم) ذكر اسمه في القرآن الكريم في قوله تعالى : (٣٣) ((" ومبشرا برسول من بعدي اسمه احمد ")) ، وقوله تعالى : (٣٤) ((" محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم ")) ، فليس هناك ارفع منزلة عند الله من هذه المنزلة المقدسة ، وذلك في قول حسان : (٣٥)

وضم الاله اسم النبي الى اسمه   اذا قال في الخمس المؤذن اشهد

وكلمة (ضم) فعل ماض تدل على الجمع والجذب ، يقال (ضم جناحه عن الناس) ، اي ألان جانبه لهم ورفق بهم (٣٦) .

وحين يمدح حسان الرسول ويصفه بالشجاعة وينعته بقوة الارادة والتقدم نحو العدو يتخذ من الالفاظ (جلد النحيزة ، ماض ، غير رعديد ....) اداة لتبيان مقدرته في مواجهة العدو واسلوبه في التغلب عليه وعدم التردد او التراجع فيقول : (٣٧)

مستشعري حلق الماذي يقدمهم   جلد النحيزة ماض غير رعديد

---

(٣١) ديوانه ٥٢ ، وديوانه وليد عرفات ٤٦٤ مع بعض الاختلاف . وصفة الصفوه ٥٣/١ مع بعض الاختلاف .
(٣٢) ديوانه طبعة عرفات ١/ ٤٦٥ .
(٣٣) سورة الصف ٦ .
(٣٤) سورة الفتح ٢٩ ، وسورة ال عمران ١٤٤ ، وسورة الاحزاب ٤٠ ، وسورة محمد ٢ .
(٣٥) ديوانه ٤٧ و ١/ ٣٠٦ ، طبعة عرفات .
(٣٦) ينظر لسان العرب (ضمم) .

فالنبي (صلى الله عليه واله وسلم) شجاع وهو بطل مقدام ، يتقدم اصحابه الابطال وهم لابسون دروعهم وحاملون سلاحهم ، فالشاعر يستعمل الوصف وسيلة اخرى لبناء قصيدة المديح النبوي ، وفي قول حسان مايشير الى ان اسلوب الوصف خير مايعبر عنه بقوله : (٣٨)

ماض على الهول ركاب لما قطعوا   اذا الكماة تحاموا بالصناديد

في هذا البيت تظهر شجاعة الرسول حين يتقدم بقلب واثق وايمان صادق فيواجه صناديد قريش الذين يحتمي بهم الكماة وحاملوا السلاح والاقوياء لأن الكفر نزع من قلوبهم السكينة وفقدوا الطمأنينة التي يتميز بها المؤمنون .

وقد يلجأ الشاعر الى الاسلوب الانشائي فيبدأ بالقسم في قوله : (٣٩)

والله ربي لا نفارق ماجداً   عف الخليقة ماجد الاجداد

والقسم يراد به التوكيد والتصميم على العزيمة وملازمة الرسول عليه الصلاة والسلام ونصرته وتعزيزه وذكر صفاته (ماجد ، عف الخليقة ، ماجد الاجداد متكرم ، يبذل النصح والحرص على مصلحة قومه ، مثل الهلال ، مبارك ، ذو رحمة ، سمح الخليقة) .

ثم يعود الى اسلوب الحوار فيقول : (٤٠)

ان تتركوه فأن ربي قادر   امسى يعود بفضله العواد
والله ربي لا نفارق امره   ماكان عيش يرتجى لمعاد

والشاعر حين يمدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، يسترسل في حديثه الذي يبدؤه بالفخر ثم يصف هجرته واستقبال الانصار له وفرحتهم بالهجرة ، وقدوم النور الذي انعم الله عليهم بمجيئه ويحدد مكاناً وزماناً معينين بعد الهجرة ووفادة القبائل عليه عام الوفود ٩هـ .

ويصف الشاعر احتفاءهم برجالهم ونسائهم واطفالهم ورحالهم وصورة السيوف اللوامع التي شهرت بوجه العدو وصورة المحتفلين بمقدمه وهم واقفون صفا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، ويكتنف كل ذلك النسب الهاشمي الاصيل نسب النبيين ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، وهذا النسب لا يعلو عليه احد من العرب او العجم ، وفي ذلك قال حسان : (٤١)

---

(٣٧) ديوانه ٤٨ ، وطبعة وليد عرفات١/ ١٢٨ .
(٣٨) ديوانه ٤٨ ، وطبعة وليد عرفات ١/ ١٢٨ .
(٣٩) ديوانه ٤٩ ، وطبعة وليد عرفات١/ ٢٧٦ .
(٤٠) ديوانه ٤٩ ، و ١/ ٣٠٥ عرفات .

ونحن ولدنا من قريش عظيمها   ولدنا نبي الخير من آل هاشم
لنا الملك في الاشراك والسبق في الهدى   ونصر النبي وابتناء المكارم
بني دارم لا تفخروا ان فخركم   يعود وبالا عند ذكر المكارم

والمراثي نوع من المدائح النبوية لأنها تذكر الصفات الكريمة والروح الطاهرة والنسب الزكي ، وفيها بيان لحب النبي او شكره او للحث على التمسك بسنته المطهرة وحدود الشريعة الاسلامية المباركة ، قال حسان : (٤٢)

بطيبة رسم للرسول ومعهد   منير وقد تعفو الرسوم وتهمد

فالأثار التي ورثها المسلمون في طيبة والرسوم لا تنمحي اثارها ، فمنبر النبوة والمصلى والمسجد والصور الحقيقية تبقى خالدة بأذن الله تعالى الى يوم المحشر فيصفها حسان بأسلوب انشائي يبدؤه بالنفي في قوله : (٤٣)

ولا تنمحي الاثار من دار حرمة   بها منبرالهادي الذي كان يصعد
وواضح آيات وباقي معالم   وربع فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها   من الله نور يستضاء ويوقد
معالم لم تطمس على العهد ايها   اتاها البلى فالاي منها تجدد

والرسول عليه الصلاة والسلام منقذ من الخزايا وراشد للأمة يصفه حسان بأسلوب خبري في قوله : (٤٤)

يدل على الرحمن من يقتدي به   وينقذ من هول الخزايا ويرشد

ومن صفاته عليه الصلاة والسلام ، انه (عفو عن الزلات يقبل العذر ، يجود بالكرم ، لين العريكة ، حريص على المؤمنين .....) ، قال : (٤٥)

ومسجد فالموحشات لفقده   خلاء له فيه مقام ومقعد
وبالجمرة الكبرى له ثم اوحشت   ديار وعرصات وربع ومولد

---

(٤١) ديوانه ٢٢٩ ، و ١/ ١٠٩ عرفات .
(٤٢) ديوانه ٥٤ و ١/ ٤٥٥ طبعة عرفات .
(٤٣) ديوانه ٥٤ و ١/ ٤٥٥ طبعة عرفات .
(٤٤) ديوانه ٥٥ و ١/ ٤٥٦ طبعة عرفات .
(٤٥) ديوانه ٥٦ و ١/ ٤٥٦ طبعة عرفات .

فنعمة الاسلام ونعمة النبوة خالدة في اعماق القلوب (العفة والسخاء والاصالة) . قال : (٤٦)

مع المصطفى ارجو بذاك جواره   وفي نيل ذاك اليوم اسعى واجهد

واحيانا يبدأ مديحه بفعل الطلب : (٤٧)

نب المساكين ان الخير فارقهم   مع النبي تولى عنهم سحرا

فهو (نصير للمساكين) وقوله : (٤٨)

كان الضياء وكان النور نتبعه   بعد الاله وكان السمع والبصرا

فالرسول نور وضياء اضاء طرق السالكين بنور الاسلام .

وقد يبدأ الشاعر بالاستفهام في قوله : (٤٩)

من ذا الذي عنده رحلي وراحلتي   ورزق اهلي اذا لم يأنسوا المطرا

---

(٤٦) ديوانه ٥٧ ، و ١/ ٤٥٧ طبعة عرفات .

(٤٧) ديوانه ٩٣ ، و١/ ٤٢١ طبعة عرفات .

(٤٨) ديوانه ٩٣ ، و٤٢١/١ طبعة عرفات .

(٤٩) ديوانه ٩٣ ، ١/ ٤٢١ طبعة عرفات .

اما الهجاء ، فهو نوع من المديح غير المباشر ، فالشاعر حين يهجو عدوا فأنما يمدح من يحبه بشكل غير مباشر ، فحسان حين هجا المشركين فهو يخفي هذه الصفة عن الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وعن المسلمين ، فقد هجا رجلا من بني تميم ومدح نفسه وبني هاشم وبني المطلب وبني زهرة اقارب السيدة آمنة بنت وهب (رضي الله عنها) ام الرسول الاكرم (صلى

الله عليه واله وسلم) ، وبني اسد وهم رهط السيدة خديجة الكبرى (رضي الله عنها) واقارب الزبير بن العوام (رضي الله عنه) ابن عمة رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) وذلك في قوله : (٥٠)

لو كنت من هاشم او من بني اسد   او عبد شمس او اصحاب اللوا الصيد
أو مـــن بني نوفل او رهط مطلب   لله درك لـــم تهمـــم بتهـــديــــــدي
أو في الذؤابة من قوم ذوي حسب   لم تصبـــح اليوم نكســـا ثاني الجيد
أو من بني زهرة الاخيار قد علموا   أو من بني جمح البيض المنــــــاجيد

فالشاعر حسان يهجو رجلا يدعى (مسافح بن عياض) ويمدح هذه الانساب الزكية والاصول الطاهرة التي ينتسب اليها النبي (صلى الله عليه واله وسلم) ، ثم يعود حسان في القصيدة نفسها فيذكر حبه للرسول فيقول : (٥١)

لولا الرسول فأني لست عاصيه   حتى يغيبني في الرمس ملحود
وصاحب الغار اني سوف احفظه   وطلحة بن عبـــيد الله ذو الجود(٥٢)

وفي هذه الابيات التي امتزج فيها الهجاء بالمديح ، انما تمثل اسلوبا تقليديا سار عليه العرب منذ القدم تمثل ذلك في منافراتهم المعروفة التي يختلط فيها الفخر والمديح والهجاء في قصيدة واحدة ، ثم نجد الشاعر يلجأ الى اسلوب الشرط في قوله (لو كنت) ويقصد النفي ، فهو ينفي انتساب المهجو الى اصول زكية او اباء لهم مكانه مشرفة عند العرب ، ويلجأ الشاعر الى اسلوب التكرار حين يكرر لفظة (لو) و (أو) فيقول (لو كنت) اي (ما كنت) ويؤكد ذلك النفي بتكرار (لو كنت من بني) خمس مرات لغرض توكيد الهجاء ونفي الصفات الحسنة التي يتصف بها رهط النبي (صلى الله عليه واله وسلم) عن المهجو .

---

(٥٠) ديوانه ٧٤ ، و ١/ ٣٤٩ طبعة عرفات .

(٥١) ديوانه ٧٥ ، و ١/ ٣٤٩ طبعة عرفات .

(٥٢) ينظر الاصابة ج ٢٢٩/٢ ص ، وطلحة احد العشرة المبشرة بالجنة .

وفي قطعة هجا فيها حسان ابا جهل ، قال فيها : (٥٣)

لقد لعن الرحمن جمعا يقودهم   دعي بني شجع لحرب محمد

نجده يمدح الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) مستعملا اسلوب الخبر في قوله : (٥٤)

فأنزل ربي للنبي جنوده وأيده بالنصر في كل مشهد

وهكذا نجد المديح في شعر حسان يقابله الهجاء او الفخر او الرثاء او الاغراض الاخرى ، وهو امر مألوف في بعض دواوين الشعراء الاسلاميين .

---

(٥٣) ديوانه طبعة عرفات ١/ ١٤٤ .
(٥٤) المصدر نفسه .

الخاتمة

تميز حسان بن ثابت بمصاحبته للرسول (صلى الله عليه واله وسلم) في المسجد النبوي الشريف ، وانشاده الشعر في الدفاع عن الاسلام والدعوة لنصرته ومدائحه النبوية التي يصف بها الرسول عليه الصلاة والسلام خُلقا و خَلقا ، وهو نبي الامة وشفيع المؤمنين يوم الحشر ، فقد اتخذ حسان لبناء شعر المديح اساليب متعدده ، كان الحوار احدها والاسلوب القصصي التاريخي واساليب الخبر والانشاء ، مثل النفي والنهي والشرط والطلب والاستفهام والتقسيم ، وغير ذلك مما ورد في ديوانه في مدائحه النبوية .

ارجو من الله تعالى ان يوفقني للكتابة عن المدائح النبوية عند غيره من الشعراء .

المصادر

- القرآن الكريم .

- الاتقان في علوم القرآن / السيوطي – ٩١١هـ ، تح. فؤاد احمد زمرلي / نشر دار الكتاب العربي – بيروت ط ٢٠٠٥ .
- الاصابة في تمييز الصحابة / ابن حجر العسقلاني – ٨٥٢هـ ، طبع دار العلوم الحديثة / مصر ١٣٢٨هـ .
- ديوان حسان بن ثابت الانصاري / طبعة دار صادر - بيروت – بلا تاريخ .
- ديوان حسان بن ثابت الانصاري / ٥٠هـ ، تح وليد عرفات ، ط. دار صادر – بيروت ١٩٧١ .
- صفة الصفوة / ابن الجوزي – ٥٩٧هـ ، تح. ابي علي مسلم الحسيني / مكتبة الايمان / القاهرة ١٩٩٩ .
- لسان العرب / ابن منظور – ٧١٠هـ ، طبع دار صادر / بيروت ١٩٥٥ .